سورة فصلت، وتسمى السجدة

مكية، وآياتها ٥٤، وقيل: ٥٣ آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾

إن جعلت ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ اسماً للسورة كانت في موضع المبتدأ. و﴿تَنزِيلٌ﴾ خبره. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف و﴿كِتَٰبٌ﴾ بدل من تنزيل. أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف، وجوّز الزجاج أن يكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره. ووجهه أن تنزيلاً تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة: من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعد ووعيد، وغير ذلك، وقرئ: «فصلت»، أي: فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها، من قولك: فصل من البلد. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت. وقيل: هو نصب على الحال، أي: فصلت آياته في حال كونه قرآناً عربياً ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين، لا يلتبس عليهم شيء منه. فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت، أي: تنزيل من الله لأجلهم. أو فصلت آياته لهم. والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده، أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب؛ لئلا يفرق بين الصّلات والصفات. وقرئ: «بشير ونذير» صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون ولا يطيعون، ومن قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي، ولقد سمعه، ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾

والأكنة: جمع كنان. وهو الغطاء، و«الوقر» بالفتح: الثقل. وقرئ: بالكسر. وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلف ٢/١٥٦ب وأغطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] ومج أسماعهم له كأن بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا، أو فاعمل في إبطال أمرنا، إننا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ: «إنا عاملون» فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب: لكان المعنى: أن حجاباً حاصلاً وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ[1] فيها. فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذاننا وقر؛ ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما فائدة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب)؟ وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب، ومن جهته أيضاً ابتدأ حجاب، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها، ولو لا ذكر (من) فيها لكان المعنى: على أن في المسافة بينهما حجاباً فقط» قال أحمد: ولا ينفك المعنى بدخول (من) عما كان عليه قبل، ولو كان لأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية؛ لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى، فيكون التقدير إذاً: (ومن بيننا وبينك حجاب)، وهذا يخل بمعنى (بين) إخلالاً بينا، فإنها تأبى تكرار العامل معها، حتى لو قال القائل: جلست بين زيد، وجلست بين عمرو: لم يكن مستقيماً؛ لأن تكرار العامل يصيرها داخلة على مفرد فقط، ويقطعه عن قرينه المتقدم. ومن شأنها الدخول على متعدد؛ لأن في ضمن معناها التوسط. وزاد الزمخشري على هذا فجعل (بين) الثانية غير الأولى؛ لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته، وليس الأمر كما ظنه، بل (بين) الأولى هي الثانية بعينها، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمر محفوظ، فوجب تكرار حافظه وهو بين، والدليل على هذا: أنه لا تفاوت باتفاق بين أن تقول: جلست بين زيد وعمرو؛ وبين أن تقول: جلست بين زيد وبين عمرو. وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازاً ومع المضمر وجوباً لما بيناه؛ فإذا وضح ذلك فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن موقع من هاهنا كموقعها في قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا) وذلك للإشعار بأن الجهة المتوسطة مثلاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير، ووجود من قريب من عدمها، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من، وهي قوله تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه: تبين ضعفه، والله الموفق، وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلاَّ في دور الكتاب العزيز، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية: كل واحد منها كاف في فنه، فأولها الحجاب الحائل الخارج، ويليه حجاب الصمم. وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلاَّ أسبلته، ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعاً ولا صريخاً إلاَّ استلبته، فنسأل الله كفايته.

نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة. وعلى قلوبنا أكنة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة[1] إلاّ في المعاني.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾

فإن قلت: من أين كان قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ جواباً لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾[2]؟ قلت: من حيث إنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحي إليّ دونكم فصحت ـ بالوحي إليّ وأنا بشر ـ نبوّتي، وإذا صحت نبوّتي وجب عليكم اتباعي، وفيما يوحى إليّ: أن إلهكم إله واحد ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾. وقرئ: «قال إنما أنا بشر». فإن قلت: لم خصّ من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحبّ شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته. ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة[3] من الدنيا فقرّت عصبيتهم ولانت شكيمتهم، وأهل الردّة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلاّ بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحرب، وجوهدوا[4]. وفيه بعث للمؤمنين على أداء

---

(١) قوله: «والملاحظة» لعله: والملاحة. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: كيف كان هذا جواباً لما تقدمه» قال أحمد: وأجاب بما نلخصه فنقول: لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الإباء، بدأهم بإقامة الحجة على وجوب القبول منه، فإنه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت. وإنما القادر على إظهارها هو الله تعالى تصديقاً له عليه الصلاة والسلام، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتمم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل.

(٣) قوله: «إلاّ بلمظة من الدنيا» في الصحاح: «لمظ» إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه، اهـ. فلظمة: بمعنى ملموظ، كمضغة بمعنى ممضوغ. (ع).

(٤) قال محمود: «فإن قلت: لم خص الزكاة؟ وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فبذله مصداق لاستقامته ونصوع طويته، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلاّ بلمظة من الدنيا، وأهل =

الزكاة، وتخويف شديد من منعها؛ حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة. وقيل: كانت قريش يطعمون الحاج، ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ. وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾

الممنون: المقطوع. وقيل: لا يمنّ عليهم لأنه إنما يمن التفضل. فأما الأجر فحقّ أداؤه. وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهرمى: إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر، كأصحّ ما كانوا يعملون.

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾

﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ بهمزتين[1]: الثانية بين بين. و «ءائنكم» بألف بين همزتين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين. وهو ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾؟ وهل اقتصر على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ﴾ [النمل: ٦١]؟ قلت: لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها، أو مركوزة فيها كالمسامير: لمنعت من الميدان أيضاً، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض؛ لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها، حاضرة محصليها؛ وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه، وهو ممسكها عزّ وعلا بقدرته. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها وأنماه. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود. وقسم فيها أقواتها ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾ فذلكة[2] لمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا

= الردة ما تظاهروا إلاّ بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا.» قال أحمد: كلام حسن بعد تبديل قوله: وما خدع المؤلفة؛ فإن استعماله الخداع غير لائق؛ لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الإيمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.

(١) قوله: «أئنكم بهمزتين» لعله: قرئ بهمزتين... إلخ. (ع).

(٢) أي كلام منقطع. روح المعاني (٢٤/١٠١).

نقصان. قيل: خلق الله الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج: في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة اليومين. وقرئ: «سواء» بالحركات الثلاث: الجر على الوصف والنصب على: استوت سواء، أي: استواء: والرفع على: هي سواءٌ. فإن قلت: بم تعلق قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؟ قلت: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر: أي: قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين. وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج. ٢/١٥٧أ[1] فإن قلت: هلا قيل في يومين؟ وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين، علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن تقول: في يومين وأن تقول: في أربعة أيام سواء، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين، وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين ـ وقد يطلق اليومان على أكثرهما ـ لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ من قولك: استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على شيء، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحوه قولهم: استقام إليه وامتد إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك. قيل: كان عرشه قبل

---

(١) قال محمود: «إن قوله (في أربعة أيام) فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها، كأنه قال: وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فذلك أربعة أيام سواء. وقال: ومعنى سواء: كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تتمة أربعة أيام، يريد بالتتمة: اليومين، ثم قال: فإن قلت: بمتعلق قوله: (للسائلين)؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر، أي: قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين، ثم قال: وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلاّ على تفسير الزجاج» قال أحمد: لم يبين امتناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول: مقتضى التفسير الأول أن قوله: (في أربعة أيام فذلكة)، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه، فلو جعل قوله: (للسائلين) متعلقاً بمقدر: لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام، ولا كذلك على تفسير الزجاج؛ فإن الأربعة على قوله من تتمة الأول، وهي متعلقة بمقدر على تأويل حذف التتمة تعلق الظرف بالمظروف؛ ليلائم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج ـ والله أعلم ـ أرجح؛ فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة؛ إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها، فإنه لم يذكر منها سوى يومين خاصة، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة، ثم تأتي هي على الجملة كقوله: (فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة).

خلق السمٰوات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع. ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع[1]، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل. ويجوز أن يكون تخييلاً ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما: ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه، فقالتا: أتينا على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير[2] أثر قدرته في المقدورات لا غير؛ من غير أن يحقق شيئًا من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني، فلم يتركني ورائي[3] الحجر الذي ورائي. فإن قلت: لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت: قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوّة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف: ائتي يا أرض مدحوّة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتي يا سماء مقببة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضيًا، وجاء مقبولاً. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير: من كون الأرض قراراً للسماء، وكون السماء سقفاً للأرض. وتنصره قراءة من قرأ: «آتيا» وآتينا: من المؤاتاة وهي الموافقة: أي: لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها. قالتا: وافقنا وساعدنا. ويحتمل وافقا أمري ومشيئتي ولا تمتنعا. فإن قلت: ما معنى طوعاً أو كرهاً؟ قلت: هو مثل للزوم وتأثير قدرته فيهما، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال، بمعنى: طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت: هلا قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى؟ لأنها سمٰوات وأرضون. قلت: لما

---

(١) قوله: «فعل الآمر المطاع» لعله: أمر الآمر. (ع).

(٢) قوله: «تصوير أثر قدرته» لعله) تأثير. (ع).

(٣) قال محمود: «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع، فهذا وجه. وأما أن يكون تخييلاً فيبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السموات والأرض فأجابتاه، والغرض منه تصوير أثر القدرة في المقدور من غير أن يحقق شيئًا من الخطاب والجواب، ومثله قول القائل: قال الحائط للوتد لم تشقنى؟ قال الوتد: اسأل من يدقني لم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي» قال أحمد: قد تقدم إنكاري عليه إطلاق التخييل على كلام الله تعالى، فإن معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحاً والعراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة؛ لما فيها من إيهام وسوء أدب، والله أعلم.

جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: طائعين، في موضع: طائعات. نحو قوله: (ساجدين)[1]. ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ونحوه: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال، والثاني: على التمييز، قيل: خلق الله السمٰوات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت، من أنه لو قيل: في يومين في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان[2]. فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها في يومين

---

(١) قال محمود: فإن قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال: (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي من الشكل: ائتي يا أرض مدحوة وقرارا ومهاداً، وائتي يا سماء سقفاً مقببة. ثم قال: فإن قلت ما معنى طوعاً أو كرهاً، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما، كما يقول الجبار لمن تحت يده: افعل هذا شئت أو أبيت. ثم قال: فإن قلت: هلا قيل طائعتين، على اللفظ. وطائعات، على المعنى: لأنها سموات وأرضون. وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره. قيل: طائعين في موضع طائعات، نحو قوله: ساجدين» قال أحمد: لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين: أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة، وهذا هو السؤال الذي أورده. الثاني أتى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل، وهذا لم يذكره، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره، ولهذا نظره بقوله: (ساجدين) فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء. فأما السؤال الآخر فلا؛ لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة، والشمس وإن كانت مؤنثة إلاّ أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف؛ فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر: وهو أن جميع ما تقدم ذكره من السموات والأرض مؤنث، فيقال أولاً: لم ذكرها؟ وثانياً: لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء، ليتحقق نسبة السؤال والجواب؟ والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأملاك مثلاً وما في معناه من المذكر، ثم يغلب المذكر على المؤنث، ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضاً.

(٢) قال محمود: «قيل: إن الله تعالى خلق السموات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة، وخلق آدم في تتمة اليوم، وفيه تقوم القيامة، ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال: في يومين، في موضع أربعة أيام سواء، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان»، قال أحمد: كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد، حيث لم يكن خلق السموات بما فيها في جملة اليومين، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها؛ لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر، وهذا لا يتم له منه غرض، فإن للقائل أن يقول: إنما كان خلق السموات بما فيها في يومين كاملين؛ لأن آدم لم يكن في السموات حينئذ، وبخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله، فتأمله.

كاملين. أو قيل: بعد ذكر اليومين: تلك أربعة سواء؟ قلت: الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك الركب[1]؛ ليتميز الفاضل من الناقص، والمتقدم من الناكص، وترتفع الدرجات، ويتضاعف الثواب، ﴿أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك. أو شأنها وما يصلحها. ﴿وَحِفْظًا﴾ وحفظناها حفظاً، يعني من المسترقة بالثواقب. ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى، كأنه قال: وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ ٢/ ١٥٧ب بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة، أي: عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة. وقرئ: «صعقة» (مثل) صعقة عاد وثمود: وهي المرة من الصعق أو الصعق. يقال: صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً، وهو من باب: فعلته ففعل. ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كل جانب، واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلاّ العتوّ والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] يعني لآتينهم من كل جهة، ولأعملن فيهم كل حيلة، وتقول: استدرت بفلان من كل جانب، فلم يكن لي فيه حيلة. وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة؛ لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم. وقيل: معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم. فإن قلت: الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم، وكيف يخاطبونهم بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؟ قلت: قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم، أي: من قبلهم وممن يجيء من خلفهم، أي: من بعدهم؛ فكان الرسل جميعاً قد جاءوهم. وقولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم. «أن» في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ بمعنى أي، أو مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه لا تعبدوا، أي: بأنّ الشأن والحديث قولنا لكم: لا تعبدوا، ومفعول شاء محذوف

---

(١) قوله: «من مغاصاة القرائح ومصاك الركب» أي أمكنة الغوص على اللؤلؤ، وأمكنة اصطكاك الركب. (ع).

أي: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل[1] ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ معناه: فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به، وقولهم: ﴿أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. روي: أنّ أبا جهل قال في ملإٍ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى عليّ، فأتاه فقال: أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلّلنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به، ورسول الله ﷺ ساكت؛ فلما فرغ قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلاّ قد صبأ، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلاّ أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود: أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب (١٣٦٣).

١٣٦٣ ـ أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، باب: «اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله =

---

(١) قال السمين الحلبي: تَتَبَّعْتُ القرآن وكلام العرب فلم أجِدْ مفعول شَاءَ الواقع بعد «لَوْ» إلاّ مِنْ جنسِ جوابها نحو: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لو شاء جَمْعَهُمْ على الهدى لجَمَعَهُمْ عليه، ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ﴿ولو شاء الله ما عبدنا من دونه﴾ وقال [من الطويل]:

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدٍ ... وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَ بْنِ مَرْثَدِ

وقال [من الزجر]:

وَالَّذِ لَوْ شَاءَ لَكُنْتُ صَخْراً ... أو جَبَلاً أَشَمَّ مُشْمَخِرًّا

قال: فَعَلَى ما تقدم لا يكون المحذوفُ ما قدَّره الزمخشريُّ، وإنما التقدير: لو شاء ربُّنا إنْزَالَ ملائكةٍ بالرسالة منه إلى الإنس لأَنْزَلَهُمْ بها إليهم؛ وهذا أَبْلَغُ في الإقْنَاع من إرْسَال البشر؛ إذْ علَّقُوا ذلك بإنْزَال الملائكةِ، وهو لم يشأ ذلك فكيف يشاءُ ذلك في البشر؟ قلْتُ: وتقدير أبي القاسم أَوْقَعُ مَعْنًى وأَخْلَصُ من إيقاع الظاهر موقع المضمر؛ إذْ يصير التقدير: لو شاء إنْزَالَ ملائكة لأَنْزَلَ ملائكةً. انتهى. الدر المصون.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوّة وعظم الأجرام. أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية. ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم، وبلغ من قوّتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده. فإن قلت: القوّة هي الشدّة والصلابة في البنية، وهي نقيضة الضعف. وأما القدرة فما لأجله يصحّ الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية[1] وهي نقيضة العجز، والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوّة إلاّ على معنى القدرة، فكيف صحّ قوله: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ وإنما يصحّ إذا أريد بالقوّة في الموضعين شيء واحد؟ قلت: القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوّة والشدّة والصلابة في البنية، وحقيقتها: زيادة القدرة[2]، فكما صحّ أن يقال: الله أقدر منهم، جاز أن يقال:

= تعالى من الإعجاز...»، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٠ ـ ٣٣١)، كتاب المغازي، باب: «في أذى قريش للنبي ﷺ...» رقم (٣٦٥٦٠)، وأبو يعلى (٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥١)، رقم (٥١) ـ (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧١)، في ذكر ما كان من أمر عتبة بن ربيعة، رقم (٢٨٣)، والحاكم (٢/ ٢٥٣)، كتاب التفسير، باب: ما أحسن محسن من مسلم ولا كافر إلاّ أثابه الله، والبغوي في تفسيره (٤/ ١١٠)، كلهم من طريق جابر بن عبد الله، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ١٩٩، ٢٠٠)، باب: اعتراف القدماء بأعلام النبوة، رقم (٨٢٨٥)، والهيثمي في المجمع (٦/ ٢٢ ـ ٢٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٩) للثعلبي ولابن مردويه في تفسريهما، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين، وغيره، وضعفه النسائي، وغيره، وبقية رجاله ثقات. قال الحافظ: أخرجه ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلاً، ووصله ابن أبي شيبة، وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل، كلهم من رواية الأجلح الكندي عن الزبال بن حرملة عن جابر مطولاً. انتهى.

---

(١) قوله: «من تمييز بذات أو لصحة بنية» هذا كقوله الآتي: إنه يقدر لذاته، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته؛ لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «القوة: الشدة في البنية ونقيضها الضعف، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل، وهي نقيضة العجز، فإن وصف الله تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها، فكيف صح قوله: (هو أشد منهم قوة)؟ ولا بد أن يراد بالقوة في الموضعين شيء واحد؟ وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة، والقوة زيادة في القدرة، فكما صح أن =

أقوى منهم، على معنى: أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة، وهو معطوف[1] على فاستكبروا، أي: كانوا كفرة فسقة. ٢/١٥٨أ الصرصر: العاصفة التي تصرصر، أي: تصوّت في هبوبها. وقيل: الباردة التي تحرق بشدّة بردها، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر، أي: يجمع ويقبض. ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها. ونحس نحساً: نقيض سعد سعداً، وهو نحس. وأما نحس، فإمّا مخفف نحس، أو صفة على فعل، كالضخم وشبهه. أو وصف بمصدر. وقرئ: «لتذيقهم» على أنّ الإذاقة للريح أو للأيام النحسات. وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب، كأنه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد: الفعل السيء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو من الإسناد المجازي، ووصف العذاب بالخزي: أبلغ من وصفهم به. ألا ترى إلى البون بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

وقرئ: «ثمود» بالرفع والنصب منوّناً وغير منوّن، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء. وقرئ بضم الثاء. ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد. فإن قلت: أليس معنى هَدَيْتهُ: حصلت فيه الهدى، والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى: تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قلت: للدلالة على أنه مكنهم وأزاح

= يقال: أقدر منهم، صح أن يقال: أقوى منهم، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم» قال أحمد: فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين، فإن سلم له من حيث اللغة فقد نكص عنه إلى حمل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام، وجعل التفضيل من حيث إن الله تعالى قادر لذاته. أي: بلا قدرة، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرية، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل: زيد أعلم من عمرو، بإثبات صفة العلم للمفضول، وسلبها بالكلية عن الأفضل. وهل هذا إلاّ عنة وعمى في اتباع الهوى وعمه؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله، معلومة قبله وبعده، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها، فضلاً عن تجاوزها إلى غيره، وقدرة الله جلت قدرته مؤثرة في المقدورات، موجودة أزلاً وأبداً، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلاّ من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من الله المنة.

(١) قوله: «وهو معطوف على فاستكبروا» أي: قوله تعالى (وكانوا... إلخ). (ع).

عللهم ولم يُبق لهم عذراً ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها. ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب. و﴿ٱلْهُونِ﴾ الهوان، وصف به العذاب مبالغة، أو أبدله منه، ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة[1] بشهادة نبيها ﷺ ـ وكفى به شاهداً ـ إلاّ هذه الآية، لكفى بها حجة[2].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قرئ: «يحشر» على البناء للمفعول. ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها، ويحشر:

---

(١) قوله: «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم: جميع الحوادث ـ خيراً كانت أو شراً من أفعال العباد الاختيارية أو غيرها ـ فهي بقضاء الله تعالى وقدره، خلافاً للمعتزلة؛ حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره، ولا تأثير له فيها أصلاً. وهذا أحق بالتنقيص الذي يفيده الحديث. وفسروا الإضلال والهوى في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) يخلق الضلال وخلق الاهتداء، خلافاً للمعتزلة: حيث فسروا الإضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه، والهدى بالبيان، ونقل النسفي عن أبي منصور الماتريدي: أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان، كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما في قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم. وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة، ثم كفروا وعقروها اهـ (ع).

(٢) قال محمود: «فدللناهم على طريقي الضلالة والرشد، ثم قال: فإن قلت: أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح عللهم، ولم يبق لهم عذر ولا علة، فكأنه حصل البغية فيهم بحصول موجبها، ثم قال: ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام ـ وكفى به شهيداً ـ إلاّ هذه الآية، لكفى بها حجة، قال أحمد: قد أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، فإن القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبي ﷺ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الزمخشري أثرهم القدرية المتمجسة، الذين أديانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط في هذا السلك، ومنهبط في مهواة هذا الهلك، ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: الهدى من الله تعالى عند أهل السنة حقيقة: هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين، والإضلال: خلق الضلال في قلوب الكافرين، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازاً واتساعاً، نحو هذه الآية، فإن المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما فسره الزمخشري. وقد اتفق الفريقان: أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى ههنا مجاز، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز في جميع موارده في الشرع، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ وأي دليل في هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره، ويذيقه وبال أمره؟

على البناء للفاعل، أيّ: يحشر الله عزّ وجلّ ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ الكفار من الأوّلين والآخرين ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يحبس أوّلهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته؛ فإن قلت: (ما) في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ما هي؟ قلت: مزيدة للتأكيد، ومعنى التأكيد فيها: أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥١] أي: لا بدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرّمات. فإن قلت: كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلت: الله عزّ وجلّ ينطقها كما أنطق الشجرة[1] بأن يخلق فيها كلاماً. وقيل: المراد بالجلود: الجوارح. وقيل: هي كناية عن الفروج، أراد بكل شيء: كل شيء، من الحيوان، كما أراد به في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] كل شيء من المقدورات، والمعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان، وعلى خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ـ وإنما قالوا لهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

والمعنى: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا﴾ كنتم ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم، وذلك[2] الظنّ هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عيناً كالئة ورقيباً مهيمناً؛ حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملأ، ولا يتبسط في سره مراقبة[3] من التشبه بهؤلاء الظانين.

---

(١) قوله: «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام وهو خلقه الكلام في الشجرة التي كانت عند الطور. وعند أهل السنة: هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين في محله. (ع).

(٢) قوله: «وذلك الظن هو الذي أهلككم» لعله. وذلكم. (ع).

(٣) قوله: «في سره مراقبة من التشبه» أي مخافة، كما أفاده الصحاح. (ع).

وقرئ: «ولكن زعمتم» ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿ظَنُّكُمُ﴾ و ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبران، ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلاً من ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ و ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ الخبر.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكوا به من الثواء في النار، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه: لم يعتبوا ٢/ ١٥٨ب: لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عزّ وعلا: ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقرئ: «وإن يستعتبوا» فما هم من المعتبين» أي: إن سألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أي: لا سبيل لهم إلى ذلك. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ وقدّرنا لهم، يعني لمشركي مكة: يقال: هذان ثوبان قيضان: إذا كانا متكافئين. والمقايضة: المعاوضة. ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخدانا[1] من الشياطين جمع قرين، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦] فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه أنه خذلهم[2] ومنعهم التوفيق؛ لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين[3]. والدليل عليه ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ نقيض. ﴿أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما تقدّم من أعمالهم وما هم عازمون عليها. أو ما بين

---

(١) قوله: «قرناء أخدانا» أي أصدقاء. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «قلت: معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر. أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير، فلا داعي إلى هذا التكلف. قال تعالى: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) إلخ. (ع).

(٣) قال محمود: «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ وأجاب بأن معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين. والدليل عليه قوله تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن... الآية) قال أحمد: جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة: أن الأمر على ظاهره، فإن قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه، ويأمر بما لا يريد حصوله، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها، وإنما تأولها الزمخشري ليتبعها هواه الفاسد في اعتقاده أن الله تعالى لا ينهى عما يريد. وإن وقع النهي عنه فعلى خلاف الإرادة ـ تعالى الله عن ذلك وبه نستعيذ من جعل القرآن تبعاً للهوى، وحينئذ فنقول: لو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية، لكفى بها؛ فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه الله بها الذي أنطق كل شيء في الآية التي قبل هذه.

أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات، وما خلفهم: من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ جملة أمم. ومثل في هذه ما في قوله [من المنسرح]:

إِنَّ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ ... فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا[1]

يريد: فأنت في جملة آخرين، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد. فإن قلت: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾ أي: حقّ عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قرئ: «والغوا فيه» بفتح الغين وضمها. ويقال: لغى يلغي، ولغا يلغو: واللغو الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال: من اللغا ورفث التكلم. والمعنى: لا تسمعوا له إذا قرئ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل[2]، وما أشبه ذلك، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا: هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم. وقد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم بدر. و﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون، حتى تستقيم هذه الإشارة. و ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء. أو خبر مبتدأ محذوف. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ قلت: معناه أن النار

---

(١) لعروة بن أذينة، يقول: إن تك مأفوكاً ـ أي: مصروفاً ومنقلباً عن أحسن العطاء ـ فلا عجب، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان. ومنه: المؤتفكات، وهي المدن المنقلبة على قوم لوط، وتقول العرب: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض، يعنون: الرياح المختلفة المهاب.
ينظر: ديوانه ص ٣٤٣، ولسان العرب: (أفك) (وفيه «عمرو بن أذينه» وهذا تصحيف)، وأساس البلاغة (أفك)، وتاج العروس (أفك)، ومقاييس اللغة: ١/ ١١٨، ومجمل اللغة: ١/ ١٩٨، والمخصص: ٣/ ٤٥، ١٢/ ١٠٢.

(٢) قوله: «والزمل» الذي في الصحاح «الأزمل» الصوت: والأزمولة ـ بالضم ـ: المصوت من الوعول وغيرها. (ع).

في نفسها دار الخلد، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] والمعنى: أن رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وتقول: لك في هذه الدار دار السرور. وأنت تعنى الدار بعينها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: جزاء بما كانوا يلغون فيها، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ أي: الشياطين اللذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ لأنّ الشيطان على ضربين: جني وإنسي. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٥ ـ ٦] وقيل: هما إبليس وقابيل؛ لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق (١٣٦٤). وقرئ: «أرنا» بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ: فخذ. وقيل: معناه أعطنا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل: أنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى: بصرنيه. وإذا قلته بالسكون، فهو استعطاء، معناه: أعطني ثوبك، ونظيره: اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة. وفضلها عليه؛ لأنّ الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشدّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب. وعن

١٣٦٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٥)، رقم (٣٠٥١١)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٨٦)، والحاكم (٢/ ١١٠)، كتاب التفسير، باب: إن أول ما يتكلم يوم القيامة من الآدمي فخذه وكفه، جميعهم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعزاه السيوطي في الدرّ المنثور (٥/ ٦٨١) للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

عثمان رضي الله عنه: أخلصوا العمل. وعن علي رضي الله عنه: أدّوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أخبرني بأمر أعتصم به. قال: «قل ربّي الله، ثم استقم» قال: فقلت: ما أخوف ٢/١٥٩أ ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه فقال: «هذا» (١٣٦٥) ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى. وقيل: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم؛ ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ «أن» بمعنى أي. أو مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: لا تخافوا، أي: يقولون: لا تخافوا، والخوف: غمّ يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه؛ من فوات نافع أو حصول ضارّ. والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غمّ، فلن تذوقوه أبداً. وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين. ﴿تَدَّعُونَ﴾ تتمنون: والنزل: رزق النزيل وهو الضيف، وانتصابه على الحال.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه: أنهم أصحاب رسول الله ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها: ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت في

١٣٦٥ ـ أخرجه مسلم (١/٢٢٢) الأبي) كتاب الإيمان: باب: «جامع أوصاف الإسلام» رقم (٦٢/٣٨)، والترمذي (٤/٦٠٧) كتاب الزهد: باب «ما جاء في حفظ اللسان» رقم (٢٤١٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤) كتاب الفتن: باب «كف اللسان في الفتنة» رقم (٣٩٧٢)، والدارمي (٢/٢٩٨)، كتاب الرقاق: باب «في حفظ اللسان»، وابن حبان (٨/ ٢٣٧ الموارد)، رقم (٢٥٤٣)، ووهم الحاكم وأخرجه (٤/ ٣١٣)، وأخرجه الطبراني (٧/ ٧٨)، رقم (٦٣٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد»، (٩/ ٢٣٤)، رقم (٤٨٧٧).

وأخرجه ابن حبان (٣/ ٢٢١، ٢٢٢) كتاب الرقائق: باب «الأدعية» ذكر ما يجب على المرء من سؤال الباري تعالى الثبات والاستقامة على ما يُقربه إليه بفضل الله علينا بذلك» رقم (٩٤٢)، بلفظ «قل آمنت بالله... الحديث»، وأحمد (٣/ ٤١٣).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قلت: «وهو وهم من الحاكم فقد أخرجه مسلم كما بينا في أول التخريج».

والحديث ذكره الهيثمي في «الموارد» لزيادة وقعت عنده وهي: قلت يا رسول الله ما أخوف ما يخاف علي؟ قال: هذا وأشار إلى لسانه. وقال الحافظ: أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان بتمامه، وأصله في مسلم. انتهى.

المؤذنين (١٣٦٦)، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير داعياً إليه؛ وما هم إلاّ طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد، الدعاة إلى دين الله[1]. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده، كما تقول: هذا قول أبي حنيفة، تريد مذهبه.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها ـ إذا اعترضتك حسنتان ـ فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة: أن تعفو عنه، والتي هي أحسن: أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك. ثم قال: وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلاّ أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير. فإن قلت: فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن؟ قلت: هو على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ادفع بالتي هي أحسن. وقيل: (لا) مزيدة. والمعنى: ولا تستوي الحسنة والسيئة. فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، قلت: أجل، ولكن وضع التي هي أحسن موضع الحسنة؛ ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنّ من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة (١٣٦٧)، وفسر الحظ بالثواب. وعن الحسن رحمه الله: والله ما عظم حظ دون الجنة، وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان عدوًّا مؤذياً لرسول الله ﷺ، فصار وليًا مصافياً.

١٣٦٦ ـ أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٠٤)، كتاب الآذان والإقامة، باب: في فضل المؤذن وثوابه، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٥/ ٦٨٤) لابن المنذر ولابن مردويه.

١٣٦٧ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١١١)، رقم (٣٠٥٤٤) من طريق علي عن ابن عباس، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٦٨٥) لابن المنذر ولابن أبي حاتم في تفسيرهما.

---

(١) قوله: «العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك، فلا وجه للتخصيص. (ع).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

النزغ والنسغ بمعنى، وهو شبه النخس. والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جد جدّه. أو أريد: وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر. أو لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرّه، وامض على شأنك ولا تطعه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

الضمير في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث. يقال: الأقلام بريتها وبريتهنّ: أو لما قال ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ كن في معنى الآيات، فقيل: خلقهنّ. فإن قلت: أين موضع السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وهي رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها. وعند أبي حنيفة رحمه الله: يسأمون؛ لأنها تمام المعنى، وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب: لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنهوا عن هذه الواسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً ٢/١٥٩ب، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين. ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة. وقرئ: «لا يسأمون» بكسر الياء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

الخشوع: التذلل والتصاغر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥] وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربوّ وهو الانتفاخ؛ إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة[1]. وقرئ «وربأت» أي

(١) قوله: «في الأطمار الرثة» في الصحاح «الطمر» الثوب الخرق، والجمع: الأطمار. (ع).

ارتفعت؛ لأن النبت إذا همّ أن يظهر ارتفعت له الأرض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقال: ألحد الحافر ولحد، إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة، وقرئ «يلحدون ويلحدون» على اللغتين. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ وعيد لهم على التحريف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾؟ قلت: هو بدل من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [فصلت: ٤٠] والذكر: القرآن؛ لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع محمي بحماية الله تعالى، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ مثل كأن الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به. فإن قلت: أما طعن فيه الطاعنون، وتأوّله المبطلون؟ قلت: بلى، ولكن الله قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به بأن قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقاً، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته، والغرض: تخويف العصاة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم، فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت. وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي بينت ولخصت بلسان نفقهه.

﴿ءَاَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الهمزة همزة الإنكار، يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي، أو مرسل إليه عربي، وقرئ «أعجمي» والأعجمي: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان، والعجمي: منسوب إلى أمّة العجم. وفي قراءة الحسن (أعجمي) بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمي، والمرسل أو المرسل إليه عربي. والمعنى: أنّ آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً؛ لأنّ القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم. ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلاً، فجعل بعضها بياناً للعجم، وبعضها بياناً للعرب. فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمّة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً أعجميًا كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي؛ وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة، فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر. ألا تراك تقول ـ وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة ـ: اللباس طويل واللابس قصير. ولو قلت: واللابسة قصيرة، جئت بما هو لكنة وفضول قول؛ لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته، إنما وقع في غرض وراءهما. ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من الظن والشك. فإن قلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ منقطع ٢/ ١٦٠أ عن ذكر القرآن، فما وجه اتصاله به؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الجر معطوفاً على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر؛ إلا أنّ فيه عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وإمّا أن يكون مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر[1] على حذف المتبدأ. أو في آذانهم منه وقر وهو عليهم عمى. وقرئ: «وهو عليهم عم» «وعمى» كقوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨] ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

---

(١) أجاز الزمخشري في الواو في هذه الآية وجهين، أحدهما: أن تكون الواو لعطف الذين على الذين، ووقر على هدى وشفاء، ويكون من العطف على عاملين. قال: وإما أن يكون (والذين) مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، على حذف المبتدإ. أو في آذانهم منه وقر. اهـ. قال أحمد: أي وبتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المبتدإ.

﴿ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل. والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأنّ الخصومات تفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فنفسه نفع. ﴿ فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرّ. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ فيعذب غير المسيء.

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم. أو لا يعلمها إلا الله. وقرئ: «من ثمرات من أكمامهن»[1]. والكم ـ بكسر الكاف ـ وعاء الثمرة، كجف الطلعة، أي: وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به. يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله: من الخداج[2] والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح وغير ذلك. ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم، وبيانه في قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وفيه تهكم وتقريع. ﴿ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي ما منا أحد اليوم ـ وقد أبصرنا وسمعنا ـ يشهد بأنهم شركاؤك، أي: ما منا إلا من هو موحد لك، أو ما منا من أحد يشاهدهم؛ لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ، وقيل: هو كلام الشركاء، أي: ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة. ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير: أنهم لا ينفعونهم، فكأنهم ضلوا عنهم ﴿ وَظَنُّوا۟﴾ وأيقنوا. والمحيص: المهرب. فإن قلت: ﴿ ءَاذَنَّٰكَ﴾ إخبار بإيذان كان منهم، فإذ قد آذنوا فلم سئلوا؟ قلت: يجوز أن يعاد عليهم (أين شركائي)؟ إعادة للتوبيخ، وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية: دليل على إعادة المحكي. ويجوز أن يكون المعنى: أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا

---

(١) قوله: «وقرئ من ثمرات من أكمامهن» يفيد أن القراءة المشهورة: من ثمرة من أكمامها. والذي في النسفي: من ثمرات من أكمامها. ومن ثمرة من أكمامها. وأما: من ثمرات من أكمامهن. فهي المزيدة هنا، فحرر. (ع).

(٢) قوله: «من الخداج» أي: النقصان، كما في الصحاح. (ع).

نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه. ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخباراً بإيذان قد كان، كما تقول: أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة. وقرأ ابن مسعود: من دعاء بالخير. ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ أي الضيقة والفقر ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧] وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال: ﴿ هَـٰذَا لِى ﴾ أي هذا حق وصل إلي؛ لأني استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال برّ. أو هذا لي لا يزول عني، ونحوه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٣١] ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢] يريد: وما أظنها تكون، فإن كانت على طريق التوهم ﴿ إِنَّ لِى ﴾ عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة، قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم: للكافر أمنيتان، يقول في الدنيا: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾. ويقول في الآخرة: ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا ﴾. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أنّ ما هم عليه سبب الغنى والصحة، وأنهم محقوقون بذلك. / ٢/ ١٦٠ب

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

هذا أيضاً ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة، وكأنه لم يلق بؤساً قط فنسي المنعم وأعرض عن شكره ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي ذهب بنفسه وتكبر

وتعظم. وإن مسه الضرّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ بشدّة العذاب. وقرئ: «ونأى بجانبه» بإمالة الألف وكسر النون للاتباع. وناء على القلب، كما قالوا: راء في رأى. فإن قلت: حقق لي معنى قوله تعالى: ﴿وَنَئَا بِجَانِبِهِۦ﴾ قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله [من الوافر]:

.... وَنَـفَـيْـتُ عَـنْـهُ مَـقَـامَ الـذِّيـبِ.......... (١)

يريد: ونفيت عنه الذئب. ومنه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦] ومنه قول الكتاب: حضرت فلان ومجلسه، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكأنه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبر ذهب بنفسه، وذهبت به الخيلاء كل مذهب، وعصفت به الخيلاء؛ وأن يراد بجانبه: عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار؛ كما قالوا: ثنى عطفه، وتولى بركنه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) ومـاء قـد وردت لأجـل أروى ... عـلـيـه الـطـيـر كـالـورق الـلـجـيـن
ذعـرت بـه الـقـطـا ونـفـيـت عـنـه ... مـقـام الـذيـب كـالـرجـل الـلـعـيـن.

للشماخ: وأروى، اسم محبوبته. واللجين ـ بفتح اللام وكسر الجيم ـ: ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق؛ لأنه يضربه الهوى أو الراعي، فيسقط من الشجر. وذعرت ـ بفتحتين، أي: أخفت فيه القطا، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء. ومقام الذيب: إقامته أو محلها، وعبر به كناية عن ذاته، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلاً. والرجل اللعين: هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام، يقول: ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتي، عسى أن تجيء عنده فأراها. ويروى: لوصل أروى، فلعله كان موعدٌ بينهما. وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة والانتشار، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده، فيصلح موعداً للوصل. وذعرت ـ إلى آخره: كناية عن وروده ليلاً، وكالرجل اللعين: حال من ضمير الشاعر، فيفيد أنه سبق القطا والذيب وقعد هناك، أو حال من الذيب، أي: على هيئة مفزعة. وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته.
ينظر ديوانه ص ٣٢١، وجمهرة اللغة ص ٩٤٩، وخزانة الأدب. ٤/ ٣٤٧، ٣٤٨، وشرح المفصل لابن يعيش: ٣/ ١٣، ولسان العرب (لعن)، والمعاني الكبير: ١/ ١٩٤، والمنصف ١/ ١٠٩، ومجالس ثعلب: ٢/ ٥٤٣، والمحتسب ١/ ٣٢٧.

﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ يعني أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر متحمل، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقًّا وقد كفرتم به. فأخبروني من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم؟ وقوله تعالى: ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ موضوع موضع منكم، بياناً لحالهم وصفتهم.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني ما يسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً وفي باحة العرب[1] خصوصاً: من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة من المعهود خارقة للعادات؛ ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في أقاصيها، والاستقراء يطلعك ـ في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم ـ على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيمان، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه؛ وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور؛ وأن للباطل ريحاً تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضمحل. ﴿ بِرَبِّكَ ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى. و﴿ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل منه، تقديره. أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد. ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي: مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة. وقرئ: «في مرية» بالضم

---

(١) قوله: «وفي باحة العرب» أي: ساحتهم. أفاده الصحاح. (ع).

وهي الشك. ﴿مُّحِيطٌ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات» (١٣٦٨).

١٣٦٨ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي. انتهى.

obeikandl.com